خطبة صلاة الجمعة 17/ 12/ 2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الفرج مع الكرب)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

عنوان الخطبة: **الفرَج مع الكرب**

أيها الإخوة:

هذا العنوان مأخوذ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد أخرج الإمام الترمذي حديثاً صحيحاً عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي: **«يا غلام! إني أعلّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجَاهَك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الأقلام وجفتِ الصحف»**.

وفي رواية الإمام أحمد في مسنده: **«احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»**.

وقد جعل الإمام النووي هذا الحديث واحداً من مباني الإسلام وقواعد الأحكام، وضمّنه كتابه المعروف بالأربعين النووية، وقال ابن رجب الحنبلي: هذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية

من أهم أمور الدين، حتى قال بعض العلماء: تدبرت هذا الحديث، فأدهشني وكدت أطيش، فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث، وقلة التفهم لمعناه.

ومعنى (احفظ الله): أي احفظ حدوده، وحقوقه، وأوامره بالامتثال، ونواهيه بالاجتناب.

وقوله (يحفظك): يفيد أن الجزاء من جنس العمل، وله معنيان: يحفظ لك مصالح دنياك ودينك؛ يحفظ لك مصالح دنياك، فيحفظك في بدنك وولدك وأهلك ومالك، ويحفظ لك دينك وإيمانك، فيحفظك في حياتك من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليك دينك عند موتك، فيتوفاك على الإيمان، قال تعالى في حق يوسف عليه الصلاة السلام: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24].

قوله (احفظ الله تجده تُجَاهك) وفي رواية: (أمامك) معناه: أن من حفظ حدود الله، وراعى حقوقه، وجد الله معه في كل أحواله حيث توجه يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويسدده ف ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128] قال قتادة: من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه، فمعه الفئة التي لا تُغْلَب، والحارسُ الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل.

قوله (تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة) يعني أن العبد إذا اتقى الله، وحفظ حدوده، وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعرف بذلك إلى الله، وصار بينه وبين ربه معرفةٌ خاصة، فعَرَفَه ربه في الشدة، فنجاه من الشدائد بهذه المعرفة.

لما هرب الحسن البصري من الحجاج دخل إلى بيت حبيب أبي محمد، فقال له حبيب: يا أبا سعيد، أليس بينك وبين ربك ما تدعوه، فيسترَك من هؤلاء؟ ادخل البيت، فدخل، ودخل الشرط على أثره، فلم يروه، فذُكِرَ ذلك للحجاج، فقال: بل كان في البيت، إلا أن الله طمس أعينهم فلم يروه.

وخرّج ابن أبي حاتم وغيره من رواية أبي يزيد الرقاشي عن أنس يرفعه «أن يونس عليه السلام لما دعا في بطن الحوت، قالت الملائكة: يا رب هذا صوت معروف من بلاد غريبة، فقال الله عز وجل: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: ومن هو؟ قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة؟ قال: نعم، قالوا: يا رب، أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى، قال: فأمر الله الحوت فطرحه بالعراء».

قوله (واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا) يعني: أن ما أصاب العبد من المصائب المؤلمة المكتوبة عليه إذا صبر عليها، كان له في الصبر خير كثير.

سئل بعض التابعين عن حاله في مرضه، فقال: أحبَّه إليه أحبَّه إلي.

قوله (واعلم أن النصر مع الصبر) وهذا موافق لقول الله عز وجل: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 66] وقال عمر لأشياخ من بني عبس: بم قاتلتم الناس؟ قالوا: بالصبر، لم نلق قوماً إلا صبرنا لهم.

قوله (وأن الفرج مع الكرب) يشهد له قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: 28] وقولُ النبي صلى الله عليه وسلم: **«ضحك ربنا من قُنُوط عباده وقُرْبِ غِيَرِه»** خرجه الإمام أحمد، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: 110] وقال: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214] وقال حاكياً عن يعقوب أنه قال لبنيه: ﴿يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: 87] ، ثم قص قصة اجتماعهم عقب ذلك.

أيها الإخوة:

كم قصّ القرآن الكريم من قصص تفريج الكربات عند تناهي الخطب واشتداد الكرب!

ألم يخبرنا القرآن عن نجاة نوح ومن معه في الفلك، عندما أمطرت السماء وتفجرت ينابيع الأرض، ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: 12].

ألم يخبرنا القرآن عن نجاة إبراهيم من نار النمرود بعد أن أشعلوها ضِراماً ورموا أبا الأنبياء فيها أياماً ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: 68-70].

ألم يخبرنا القرآن الكريم عن نجاة إسماعيل من الذبح وفدائه بعد أن ﴿أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 103-110].

ألم يخبرنا القرآن الكريم عن إنجاء موسى من البحر، وأيوبَ من المرض، ويونسَ من بطن الحوت، وعيسى من الصلب، ويوسفَ من البئر، ولوط وهود وصالح وشعيب!

ألم يخبرنا القرآن الكريم بإنجاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم في الغار، ويوم بدر، ويوم أحد، ويوم الأحزاب، ويوم حنين، وغير ذلك!

كأني بالقرآن الكريم كلِّه يقول لقارئيه إن الفرج مع الكرب!

ومن لطيف هذه اللفظة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال مع ولم يقل بعد، فقال: (إن الفرج مع الكرب) ولم يقل (إن الفرج بعد الكرب)، ليشير إلى قرب الفرج من الكرب حتى كأنه معه لا بعده، وإن ظن العباد تأخره.

قال مُحَمَّد بن أبي رَجَاء: أصابني هم شَدِيد، لأمر كنت فِيهِ، فَرفعت مقْعداً لي، كنت أتكأ عَلَيْهِ، فَإِذا برقعة مَكْتُوبَةٍ فَنَظَرت فِيهَا، فَإِذا فِيهَا مَكْتُوب:

يَا صَاحب الْهم إِن الْهم مُنْقَطع لَا تيأسن كَأَن قد فرج الله

قَالَ: فَذهب عني مَا كنت فِيهِ من الْغم، وَلم ألبث أَن فرج الله عني، فَللَّه الْحَمد وَالشُّكْر.

قال الأصمعي: نزلت بحي مجدبين، قد توالت عليهم السنون، فماتت المواشي، ومُنِعت الأرض من إخراج النبات، وأمسكت السماء قطرها، فجعلتُ أنظر إلى السحابة ترتفع من ناحية القبلة سوداء متقاربة، حتى تطبق الأرض، فيتشوفُ لها أهل الحي ويرفعون أصواتهم بالتكبير، ثم يَعْدِلُها الله عنهم مراراً.

فلما كثر ذلك، خرجت عجوز منهم، فعلت نشزاً من الأرض، ثم نادت بأعلى صوتها: يا ذا العرش، اصنع كيف شئت فإن أرزاقنا عليك.

فما نزلت من وضعها، حتى تغيمت السماء غيما شديدا، وأمطروا مطرا كاد أن يغرقهم، وأنا حاضر.

أخرج البخاري عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ وَلِيدَةً كَانَتْ سَوْدَاءَ لِحَي مِنَ الْعَرَبِ فأعْتَقُوهَا، فَكَانَتْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: فَخَرَجتْ صَبِيَّة لَهُمْ عَلَيْهَا وِشاح أَحْمَرُ مِنْ سُيُورٍ، قَالَتْ: فَوَضَعَتْهُ أو وَقَعَ مِنْهَا، فَمرَّتْ بِهِ حُدَيَّاة، وهُوَ مُلْقًى، فَحَسِبتْهُ لَحْماً فخَطَفَتْهُ، قَالَتْ: فَالْتَمَسُوهُ، فلمْ يَجِدُوهُ، قالتْ: فاتَّهَمُونِي به، قَالَتْ: فَطَفِقُوا يُفَتِّشُونَ منها كل شيء، قَالَتْ: وَاللهِ إِنِّي لَقَائِمَة مَعَهُمْ، إِذْ مَرَّتْ الْحُدَيَّاةُ، فألْقَتْهُ، قَالَتْ: فَوَقَعَ بَيْنَهُمْ، قَالَتْ: فقُلْتُ: هَذَا الَّذِي اتَّهَمْتُمُونِي بِهِ زَعَمْتُمْ وأَنا مِنْهُ بَرِيئَة، وَهُوَذَا هُوَ، قَالَتْ:

فجاءَتْ إلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فأسْلَمَتْ، قَالَتْ عائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: فكانَ لَهَا خِبَاء في الْمَسْجِدِ، قَالَتْ: فَكَانَتْ تَأتِيني، فَتَحَدَّثُ عِنْدِي، فَلَا تَجلِسُ عِنْدي مَجْلِساً إلَّا قَالَتْ:

وَيَوْمَ الْوِشَاحِ مِنْ أعَاجِيبِ رَبِّنَا ... ألَا إنَّهُ مِنْ بَلْدَةِ الْكُفْرِ أنْجَانِي

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ لَهَا: مَا شَأنُكِ، لا تَقْعُدِينَ مَعِي مَقْعَداً إلَّا قُلْتِ هَذَا؟ قَالَتْ: فَحَدَّثَتْنِي بهذَا الْحَدِيثِ.

أيها الإخوة:

من لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليسرِ بالعسر: أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى، وحصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين، تعلق قلبه بالله وحده، وهذا هو حقيقة التوكل على الله، وهو من أعظم الأسباب التي تُطْلَب بها الحوائج، فإن الله يكفي من توكل عليه، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3].

وأيضاً فإن المؤمن إذا استبطأ الفرج، وأيس منه بعد كثرة دعائه وتضرعه، رجع إلى نفسه باللائمة، وقال لها: إنما أُتيت من قبلِك، ولو كان فيك خير لأجبت، فهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات، فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه واعترافَه له بأنه أهل لما نزل من البلاء، وأنه ليس بأهل لإجابة الدعاء، فلذلك تسرع إليه حينئذ إجابة الدعاء وتفريج الكرب، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله.

أيها الإخوة:

إذا طاف بنا عُسرٌ، إذا حلَّ بنا ضيقٌ، إذا نزلت بنا شدةٌ، فلا تيأسوا فإن القانون الرباني جعل الكرب فرجاً ومع العسر يسراً ومع الضيق مخرجاً، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ انْتِظَارُ الْفَرَجِ**» (الترمذي).

والحمد لله رب العالمين